

الدرس الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين:

وأأنواع العبادَةِ التي أَمَرَ اللهُ بها: مثلُ الإسلام، والإيمان، والإحسان؛ ومنهُ الدعاءُ، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكلُ، والرغبةُ، والرَّهبةُ، والخشوعُ، والحُشْيَةُ، والإنابةُ، والاستعانةُ، والاستعاذةُ، والاستغاثةُ، والدُّبْحُ، والنذرُ، وغيرُ ذلك من أنواع العبادَةِ التي أَمَرَ اللهُ بها كُلُّها اللهُ تعالى، والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَأَنِ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨]. فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لغيرِ اللهِ فهو مشرِكٌ كافرٌ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وفي الحديثِ «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ» والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ودليلُ الخوفِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ودليلُ الرَّجَاءِ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

ودليلُ التَّوَكُّلِ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

ودليلُ الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ والخُشُوعِ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ وَدَعُونَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ودليلُ الحُشْيَةِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠].

ودليلُ الإنابةِ قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤].

ودليلُ الاستعانةِ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاطحة: ٥]، وفي الحديثِ: «إِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ».

ودليلُ الاستعاذةِ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

ودليل الاستغاثة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن صَّلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ».

ودليل النَّذْرِ قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

هنا ذكر الإمام رحمه الله تعالى جملةً من أنواع العبادة بياناً لها وتذكيراً بها ودلالةً بها على ما سواها من أنواع العبادة مما لم يذكره ، والذي ذكره رحمه الله هنا وهو سبعة عشر نوعاً من أنواع العبادة ذكرها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، مبيناً في كل نوع من هذه الأنواع وفرد من هذه الأفراد دليلاً من كتاب الله جل وعلا ، وعرفنا فيما سبق أن الدين كله مسائل ودلائل ، الدين كله مسائل تُذكر مع دلائلها من كتاب الله جل وعلا ؛ فالمسائل التي لا تقوم على دليل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وليس لها مستند من كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فهي مردودة، فالدين مسائل ودلائل ، ولهذا نرى الشيخ رحمه الله على طريقة أهل العلم وجادة السلف أهل السنة يذكرون المسألة مضموماً إليها دليلها إما من كتاب الله جل وعلا أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم ولا يخترعون -وحاشاهم ذلك- بل يبنون كل ما يقررونه على الدلائل البينات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فهم أئمة هدى ودعاة حقٍ إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى صراط الله المستقيم .

وكان رحمه الله ذكر في الأصل الأول -الذي هو معرفة العبد ربه- أن معرفة العبد ربه تكون باعتقاد أن الرب الذي تفرد بالخلق والرزق والذي يُعرف بآياته ومخلوقاته لا يُعبد إلا هو كما مر كلامه رحمه الله: ((والرب هو المعبود)) وتلا قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] ، ونقل كلام الإمام المفسر ابن كثير رحمه الله قال : «الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة» ؛ فإذا تقرر ذلك وجب على المسلم أن يعرف العبادة وأن يعرف أنواعها ويجهتد في معرفة أفرادها ليصرفها كلها لله ، ولكي لا يجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً في شيء منها . ولهذا أخذ يعدّد المصنف رحمه الله أنواعاً من العبادة مستدلاً على كل نوع من هذه الأنواع بدليله من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

ولهذا قال : ((وأنواعُ العبادة التي أَمَرَ اللهُ بها)) ولنتنبه إلى قوله رحمه الله «التي أَمَرَ اللهُ بها» ؛ لأن العبادة هي شرع الله الذي أذن هو جل وعلا لعباده أن يتقربوا به إليه كما قال : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] قال جل وعلا :

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] ، فالدين هو ما أذن الله به ورضيه لعباده وأمرهم به في كتابه أو في سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((مثلُ الإسلام، والإيمان، والإحسان)) وهذه الأمور الثلاثة التي بدأ بها رحمه الله هي الدين كله ، كما هو مبين في حديث جبريل المشهور لما سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإسلام ثم سأل عن الإيمان ثم سأل عن الإحسان ثم قال عليه الصلاة والسلام في تمام الحديث : ((هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)) ؛ فالدين يجمعه هذه المراتب الثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان؛ هذه مراتب الدين . وأعلى هذه المراتب الإحسان؛ وهو أن يعبد المسلم ربه جل وعلا كأنه يراه ، كما قال عليه الصلاة والسلام : ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) . ثم يلي هذه المرتبة مرتبة الإيمان وقد فسر النبي عليه الصلاة والسلام الإيمان بذكر أصوله التي عليها يبنى ، قال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) . ثم يلي هذه المرتبة مرتبة الإسلام ، وفسره النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : ((أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً)) .

فهذه الثلاثة هي الدين ؛ الدين إسلام وإيمان وإحسان ، وكلٌّ من هذه الأسماء -الإسلام والإيمان والإحسان- جاء بيانها مجملاً ومفصلاً في كتاب الله جل وعلا؛ ولهذا من العبادة ومن الدين الذي نتقرب إلى الله سبحانه وتعالى به أن نحقق العلم بهذه المراتب الثلاثة ونجتهد تحقيق في ذلك ، وأن نحقق أيضاً العمل بهذه المراتب وما تقتضيه من ذل وعبودية وخضوع لله تبارك وتعالى . فهذا من العبادة؛ الإسلام والإيمان والإحسان ، وهو من أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله جل وعلا بل هو الدين كله ؛ الدين كله يجتمع في هذه الكلمات الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان . وسيأتي ذكر الدليل على هذه المراتب الثلاثة عند المصنف رحمه الله تعالى لاحقاً .

قال : ((ومنه الدعاء)) ؛ من العبادة التي يُتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى ويفرد به وتُخلص له سبحانه وتعالى ولا يُجعل معه شريك فيها : الدعاء ؛ بل إن الدعاء هو أعظم العبادة وأجلُّها ، وسيأتي ذكر الدليل عليه وكذلك ذكر الدليل على بقية العبادات التي ساقها رحمه الله تعالى ؛ فذكر رحمه الله من العبادة : «الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرغبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والدُّبْحُ، والنذر»؛ قال : «وغير ذلك من أنواع العبادة» ، وسيأتي الكلام على هذه العبادات واحداً واحداً مع ذكر الدليل الذي ساقه المصنف رحمه الله على هذه العبادات .

قال : ((وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها)) قال «كُلُّها» أي ما ذكره رحمه الله من العبادة وما لم يذكره ، لأن الذي ذكره ذكره على سبيل المثال ، فما ذكره من العبادة : الدعاء والذبح والنذر والاستغاثة والاستعانة وغيرها هذه كلها وغيرها أيضاً مما لم يذكره العبادة كلها حق لله جل وعلا ، العبادة التي هي غاية الذل مع الخضوع والحب لله هذه لله ، لا يكون ذل الإنسان وخضوعه وانكساره وإتيانه بهذه العبوديات إلا للذي خلقه

جل وعلا وأوجده من العدم ومنّ عليه بصنوف النعم وأنوع المنن ؛ فلا يدعو إلا الله ، ولا يخاف إلا الله ، ولا يرجو إلا الله ، ولا يتوكل إلا على الله ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يهرب إلا منه ، ولا يصرف شيئاً من هذه العبادات ولا غيرها إلا لله تبارك وتعالى ، فإن العبادة حق له لا شريك له في شيء منها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عن غيرهما .

قال : ((والدليل)) أي والدليل على أن هذه العبادات كلها لله وأن أحداً ليس له شركة مع الله سبحانه وتعالى في شيء منها الدليل على ذلك :

((قوله تعالى: ﴿وَأَنۢ أَلۡمَسَاجِدَ لِلّٰهِ فَلَا تَدۡعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَدًا﴾)) أي لا تعبدوا مع الله أحداً ، العبادة حق لله تبارك وتعالى ؛ لا تَدْعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَدًا دعاء مسألة من سؤالٍ وطلبٍ ورغبةٍ ، ولا تدعوا مع الله أحداً دعاء عبادة ؛ فلا تذلوا وتخضعوا وتصرفوا العبادة إلا لله تبارك وتعالى ، فالعبادة حق له وحده .

وقوله جل وعلا في هذه الآية : ﴿وَأَنۢ أَلۡمَسَاجِدَ لِلّٰهِ﴾ ؛ «الْمَسَاجِدُ» تحتل أحد معنيين :

١. تحتل المساجد أي مواضع السجود؛ ﴿وَأَنۢ أَلۡمَسَاجِدَ لِلّٰهِ﴾ أي مواضع السجود والأماكن المبنية للصلاة والسجود والعبادة لله تبارك وتعالى ، ويكون المعنى ﴿وَأَنۢ أَلۡمَسَاجِدَ لِلّٰهِ﴾ : أي مواضع السجود وأمكنة السجود لله فلا يُعبد فيها إلا الله ، لأنها بيوت الله وأحب الأماكن إلى الله سبحانه وتعالى ﴿فِي بُيُوتِ أٰذِنَ اللّٰهُ أَنۢ تُرَفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦] ، فهي أماكن لعبادة الله تبارك وتعالى فلا يُعبد فيها إلا الله ، ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) .

٢. والمعنى الثاني: ﴿وَأَنۢ أَلۡمَسَاجِدَ﴾ أي أعضاء السجود وهي: الوجه الجبهة والأنف والكفين والركبتين وأطراف القدمين ﴿لِلّٰهِ﴾ أي لا يسجد بها إلا الله ؛ فلا يكون من العبد سجود وركوع وخضوع وذل إلا لله تبارك وتعالى .

﴿وَأَنۢ أَلۡمَسَاجِدَ لِلّٰهِ فَلَا تَدۡعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَدًا﴾ «أَحَدًا» نكرة جاءت في سياق النهي فتفيد العموم ؛ أي أي أحد كان ، لا من الأنبياء المرسلين ولا من الملائكة المقربين ولا من الأولياء الصالحين ولا من غيرهم ؛ لا تَدْعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَدًا: أي أي أحد كان ، فكل أحد مهما علا قدره وعلت منزلته وعظم جاهه ليس له أحقية في العبادة وليس له مشاركة في العبادة ، العبادة ليست إلا لله وحده الذي تفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والعطاء والمنع والتدبير ، العبادة له جل وعلا وحده فلا يُصرف شيء منها لأحد سواه .

قال : ﴿وَأَنِّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ هذا دليل صريح على أن العبادة كلها لله ؛ من دعاء أو ذبح أو نذر أو استغاثة أو رجاء أو توكل أو غير ذلك كل ذلك لله لا يُصرف شيء منه إلا لله سبحانه وتعالى .

قال : ((فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لغير الله فهو مشركٌ كافرٌ)) ؛ مَنْ صَرَفَ مِنْهَا أي من العبادات لغير الله فهو مشركٌ كافرٌ ؛ مشركٌ : أي متخذ الأنداد مع الله ، وكافرٌ بالله العظيم ، وكل مشركٌ كافرٌ بالله سبحانه وتعالى ؛ الذي يتخذ الأنداد والشركاء مع الله هو كافر بالله غير مؤمن به ، لأنه لا يكون الإيمان بالله إلا بتوحيده وإخلاص الدين له ، فمن لم يخلص الدين لله جل وعلا فهو كافر بالله ، ومن كان كافرًا بالله فأعماله كلها حابطة ﴿وَمَنْ يُكْفَرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] ، وقال جل وعلا : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَالَّذِينَ مِنَ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبُطَنَّ﴾ [الزمر: ٦٥] ؛ فجعل الشركاء مع الله تبارك وتعالى مبطل للأعمال محبط لها ، ومن جعل مع الله الشركاء فهو مشرك كافر بالله تبارك وتعالى .

قال : ((فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لغير الله فهو مشركٌ كافرٌ)) ما الدليل ؟

قال : ((والدليل قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾)) ؛ فسمى جل وعلا من يدعو غيره ويعبد غيره كافرًا بالله ، والكافر أعماله كلها باطلة وعباداته كلها حابطة ولا يقبل الله سبحانه وتعالى منها شيء ، وإن مات على كفره بالله أدخله الله يوم القيامة نار جهنم مخلدًا فيها أبد الآباد لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابها، كما قال جل وعلا : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦] فكل كفور هذا ماله وهذا مصيره دخول النار يوم القيامة والخلود فيها أبد الآباد .

قال : ﴿وَمَنْ يُدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي من يجعل مع الله آلهة أخرى أنداداً مع الله وشركاء مع الله يدعوهم كما يدعو الله ويذبح لهم كما يذبح لله وينذر لهم ويستغيث بهم ويلتجئ إليهم ويتوكل عليهم ويرجوهم ويخافهم ويصرف لهم أنواع العبادة فهو كافرٌ بالله تبارك وتعالى .

قال : ﴿وَمَنْ يُدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ «لا بُرْهَانَ» : أي لا حجة ولا سلطان ، وهذا كما بين العلماء رحمهم الله وصفٌ لازم لا ينفك ؛ فكل من دعا مع الله إلهاً آخر لا برهان له ، فهذا وصف لازم لا ينفك عن كل من دعا مع الله تبارك وتعالى إلهاً آخر .

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي عقوبته وجزائه على شركه وكفره بالله حسابه عند ربه يوم يلقي الله جل وعلا ؛ فلا يغفر الله له ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] ، ويدخله النار مخلداً فيها أبداً الآباد .

قال : ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي لا سبيل لمن مات على الكفر بالله أن يحصل فلاحاً ، ولا مطمع له في مغفرة الله والفوز برحمته ، لأن الله توعد سبحانه وتعالى أن من مات على الشرك بالله لا يغفر الله له ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] ، فالذي يموت على الشرك لا مطمع له في فلاح ولا سبيل له لنيل رحمة الله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا فإن الكافر يوم القيامة يطالب بأمور لا يحصل شيئاً منها :

- يطالب بأن يُعاد مرة ثانية للحياة الدنيا ليعمل صالحاً غير الذي كان يعمل فلا يستجاب له .
- يطالب أن يخفف عنه العذاب في النار وأن تخف عليه شدة العذاب فلا يستجاب له .
- يطالب ويتمنى أن يكون تراباً ، يُقضى عليه فيموت فلا يستجاب له .

بل يأتيه كلام يسمعه هو أشد كلام يسمعه أهل النار في النار ؛ وهو ما جاء في قوله سبحانه وتعالى : ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [الباء: ٣٠] يعني ليس هناك موت ، وليس هناك تخفيف ، وليس هناك عودة للحياة الدنيا ، بل ليس أمامكم إلا زيادة العذاب ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ؛ فهذه حال من يكفر بالله ويشرك بالله ويجعل مع الله تبارك وتعالى الأنداد . قال : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ .

لما ذكر رحمه الله هذين الدليلين :

❖ الدليل الأول : على أن العبادة كلها لله سبحانه وتعالى .

❖ والدليل الثاني : على أن من صرف شيئاً من العبادة لغير الله فهو كافر مشرك .

لما ذكر الدليلين على ذلك ؛ بدأ رحمه الله يذكر الأدلة دليلاً دليلاً على ما ذكره من أفراد العبادة . سبق أن ذكر الدعاء والخوف والرجاء والتوكل .. الخ ، فبدأ رحمه الله يذكر الأدلة من كتاب الله جل وعلا ومن السنة الدالة على أن هذه عبادات وأنها حق لله وأنه لا يجوز صرف شيء منها ولا من غيرها من العبادات لغيره سبحانه وتعالى .

فبدأ بالدعاء ؛ وبدؤه بالدعاء: لأنه أعظم أنواع العبادة ، ولهذا بدأ بالحديث الدال على ذلك قال : ((وفي الحديث «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ»)) ومعنى «مُخُّ الْعِبَادَةِ» : أي خالص العبادة ولب العبادة وصفو العبادة . فهذا فيه دلالة على أهمية الدعاء ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الحديث الآخر: ((الدعاء هو

(العبادة)) ، وهذا فيه أن الدعاء أعظم أنواع العبادة لأن النبي عليه الصلاة والسلام أتى بهذه الصيغة بضمير الفصل والخبر المعرف بالألف واللام ليدل على الحصر ، وهذا فيه الدلالة على عظم مكانة الدعاء في العبادة وأن له المكانة العلية والمنزلة الرفيعة . نظيره قوله عليه الصلاة والسلام : ((الدين النصيحة)) وقوله : ((الحج عرفة)) ونحو ذلك من الأحاديث .

فالدعاء عبادة عظيمة وطاعة جليلة لا تصرف إلا لله ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لابن عباس رضي الله عنهما : ((إذا سألت فاسأل الله)) ؛ أي لا تسأل غير الله ، لا تتوجه في سؤالك وطلبك ورغباتك وحاجاتك إلا لله تبارك وتعالى ، لأنه وحده الذي بيده العطاء والمنع ، والخفض والرفع ، والقبض والبسط ، والعز والذل ؛ كل ذلك بيده هو مالك الملك ، وهو جل وعلا مدبر الأمر وهو المعطي المانع الخافض الرافع القابض الباسط فلا يدعى إلا الله سبحانه وتعالى . والنبي صلى الله عليه وسلم لما قال : ((الدعاء هو العبادة)) تلا قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] أي حقيرين صاغرين ذليلين . فالدعاء عبادة والعبادة حق لله تبارك وتعالى . والأنبياء كلهم بُعثوا بالدعوة إلى دعاء الله وحده وصرف العبادة كلها لله جل وعلا دون أن يجعل معه شريك في شيء من ذلك .

قال : ((والدليل)) على أن الدعاء عبادة قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ وهذه الآية تلاها النبي عليه الصلاة والسلام عندما قال : ((الدعاء هو العبادة)) ، وهي نص صريح في أن الدعاء عبادة لأن الله قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ ؛ فسمى جل وعلا من يستكبر عن الدعاء مستكبراً عن العبادة ، فالدعاء عبادة والعبادة حق لله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥] ، ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣] ، ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦] ؛ فالدعاء هو من جملة العبادات بل هو من أعظم العبادات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى . ولهذا من دعا غير الله من ميت أو غائب أو شجر أو حجر وسأله وطلبه وعرض عليه حاجاته فقد أشرك بالله العظيم ، لأن الدعاء عبادة لا تصرف إلا لله ولا يتوجه فيه إلا إلى الله سبحانه وتعالى .

والمصنف رحمه الله ليس المقام عنده في هذه الرسالة مقام بسط الأدلة ، ولهذا يكتفي في كل ما يذكره بذكر دليل واحد على ذلك من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإلا لو تطالع القرآن في موضوع الدعاء خاصة تجد الأدلة على وجوب الإخلاص لله وبيان أن من دعا غير الله تبارك وتعالى بأنه مشرك بالله كثيرة جداً في القرآن الكريم ، ومع كثرتها وصراحتها ووضوحها فإن الدعاء أكثر العبادات التي تصرف لغير الله!! وكثيراً من الناس

ولاسيما عند الضراء وعند نزول البلاء وعند حلول الأمراض والأسقام وعند اشتداد الحاجات والطلبات يفتزعون إلى غير الله سبحانه وتعالى ويلجؤون إلى غير الله ممن لا يملك له ، لا يملك لنفسه فضلاً أن يملك لغيره . ولهذا يجب على المسلم أن يدرك هذه الحقيقة وأن يعلم هذا الأمر جلياً ؛ فلا يصرف دعاءه إلا لله سبحانه وتعالى؛ لا يدعو ملكاً ، لا يقول في دعائه وحاجته : "يا جبريل أو يا إسرافيل أو يا ميكائيل أو يا ملائكة الله" لا يقول ذلك ، الملائكة لهم مكانة عظيمة ومنزلة عليّة لكن مع مكانتهم ومنزلتهم ما يجوز أن يُجعلوا آلهة مع الله يدعون وتصرف لهم العبادة التي هي حق لله . وكذلك لا يجوز دعاء الأنبياء، لا يقول : "يا أنبياء الله أدركوني أو الحقوني أو أنا عائد بكم أو لائد بجنابكم أو مستجير بكم" ، ولا يقول : "يا نبي الله أو يا رسول الله الحقني أدركني أنقذني". ولا يقول : "يا أولياء الله أو يا سيدي فلان أو يا شيخ فلان الحقني أدركني" ؛ لا يقول ذلك لأن هذا دعاء والدعاء لله ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ، نبينا عليه الصلاة والسلام يقول : ((إذا سألت فاسأل الله)).

أذكر مرة كان إلى جنبي رجل من الزائرين وكنت أقرأ القرآن وكان ماداً يديه يدعو ويكي في دعائه ، ثم رفع صوته قليلاً في الدعاء وإذا به في دعائه وخشوعه وبكائه ومناجاته ينادي ويستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : "يا رسول الله الحقني" ينادي يستغيث بالرسول عليه الصلاة والسلام ويطلب أن يكشف كربيه من الرسول عليه الصلاة والسلام!! والله يقول : ﴿أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] فأخذت أتحدث معه قليلاً قليلاً في مكانة الدعاء أولاً وفضل الدعاء ومنزلته من الدين وفضل الخشوع في الدعاء والإلحاح في الدعاء وذكرت له بعض الآيات والأحاديث في ذلك ، ثم أخذت أذكر له الآيات الخاصة بالدعاء وأنه عبادة لا تصرف إلا لله مثل قول الله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقول الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥] {ومن أضل ؛ أي لا أحد أضل ، استفهام إنكاري} ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ ، وقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤] ، ومثل قول الله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] ، ومثل قول الله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي

السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿[سبا: ٢٢]﴾ وآيات أخرى في هذا الباب . أخذت أتلوا عليه هذه الآيات وأقرأها عليه آية آية .

ثم أخذت أذكر له من السنة أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام في الدعاء وقلت له : النبي صلى الله عليه وسلم حاجاته كلها ينزلها بالله ويلتجئ بها إلى الله ويطلب كشفها من الله سبحانه وتعالى وهو عبد فقير إلى الله سبحانه وتعالى من كل وجه والأمر بيد الله ، قال الله له : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ، وقال الله له : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفصل: ٥٦] ، وقال الله له : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] ؛ الأمر لله ، الأمر بيد الله سبحانه وتعالى . قلت له : النبي صلى الله عليه وسلم يفرع إلى الله إذا مرض هو أو مرض أحد فرع بالدعاء إلى الله يقول في دعائه : ((اللهم رب الناس مذهب الباس اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً)) ، الشفاء بيد الله والهداية بيد الله والعطاء بيد الله والفضل بيد الله كل ذلك بيد الله ولا يُطلب إلا من الله ، لا يُطلب من الأنبياء ولا من الملائكة ولا من غيرهم . فأخذت أبين له هذه المعاني مع دلائلها من كتاب الله جل وعلا وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ثم أردت أن أتأكد هل الرجل فهم أم لم يفهم ؟ هل استوعب الكلام أم لم يستوعب ؟ فقلت له : ما رأيك في هذا الكلام الذي سمعته ؟ فقال الرجل لي كلمة عظيمة جداً ؛ قال لي : "تقول لي ما رأيك وأنت تقرأ علي آيات وأحاديث ؟!" يعني ما في رأي إذا جاءت الآيات والأحاديث ما في رأي لأحد ، وصدق إذا جاءت الآيات و جاءت الأحاديث فليس هناك رأي لأحد ، من الذي يقدم رأيه على كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام؟ وهذا من فطنة ذلك الرجل ونباهته ؛ قال لي : "تقول ما رأيك وأنت تقرأ علي أحاديث وآيات؟!" أي ليس لي رأي ، هذا كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر عمرو وزيد ، الله يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] . قال لي : "تقول لي ما رأيك وأنت تقرأ علي آيات وأحاديث؟!" فما زلت مصرّاً أن أطمئن أن الرجل فهم واستوعب أم لم يستوعب ؟ فقلت له : أنا سمعتك تقول في دعائك : يا رسول الله أدركني ولهذا أقول لك ما رأيك ؟ فماذا قال ؟ قال لي : " أنا من بلد كذا -سمى لي بلده- ما أحد قال لي الكلام هذا" يعني ما أحد تلا علي هذه الآيات وهذه الأحاديث من كتاب الله ، ما أحد فهمه أن الدعاء عبادة لا تصرف إلا لله .

وكثير من الناس يتلى في بلده أن دعاة الضلال يفهمونه أن دعاء غير الله والاستغاثة بغير الله توسل ويقولون هذا واسطة بيننا وبين الله ، هذا واسطة وشفيع لنا عند الله سبحانه وتعالى ؛ فيدعون غير الله ويستغيثون بغير الله ويصرفون هذه العبادة التي هي حق لله لغيره بزعم أنه واسطة يقربهم إلى الله ، وهذا نظير ما جاء في القرآن : ﴿مَا

نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴿٣﴾ [الزمر: ٣] في الآية الأخرى : ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ؛ أي وسطاء لنا عند الله . من الذي قال لك اتخذ في باب الدعاء بينك وبين الله واسطة ؟ الله يقول : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ﴾ ماذا ؟ ﴿ادْعُونِي﴾ اتجهوا إلي ، التجئوا إلي ، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] من الذي قال لك اتخذ وسطاء بينك وبين الله ؟ الأنبياء واسطة بيننا وبين الله في إبلاغ الدين يبلغوننا دين الله ، لكن العبادة ليس بين الله وبين خلقه واسطة فيها ؛ يُعبد الله مباشرة ، يُتجه إلى الله سبحانه وتعالى مباشرة ، لا يجعل العبد بينه وبين الله واسطة في دعائه أو في عبادته أو في سجوده أو في ذله أو في خضوعه ، فالذي يتخذ الوسطاء والشفعاء تكون حاله كحال من قال الله عنهم : ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ .

فالشاهد أن الدعاء نظير سائر العبادات بل هو أهم العبادات لا يصرف إلا لله ؛ فلا يدعى إلا الله ، ولا يستغيث العبد إلا بالله ، ولا ينزل حاجاته ورغباته إلا بالله . بعض الناس يخاطب مخلوقين ويقول في مخاطبته لمخلوق : "إن لم تدركني من الذي يدركني ؟ إن لم تأخذ بيدي من الذي يأخذ بيدي؟" ، ويقول بعضهم لبعض المخلوقين مستغيثاً به : "أنا عبدك اللائذ بجنابك، المنكسر عند بابك، الواقف بأعتابك يرجوك ويطمع في نوالك" ويبدأ يلح ويسأل ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] ، العبد لا يُعبد مهما كانت مكانته ومهما علت منزلته العبد لا يُعبد ، العبادة حق لله سبحانه وتعالى ، العبد مهما عظمت مكانته وعلت منزلته لا يُعبد ، لا يُعطى شيئاً من العبادة ، نبينا عليه الصلاة والسلام قال في الحديث الصحيح : ((ما أحب أن تنزلوني فوق منزلي التي أنزلي الله إياها)) منزلة العبودية والرسالة .

فالشاهد أن الدعاء عبادة وهي حق لله سبحانه وتعالى ولا يجوز صرفها لغيره ، والدليل على ذلك قول الله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ .

قال : ((ودليل الخوف قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي﴾ إِنَّكُمْ مُّؤْمِنِينَ)) ؛ الخوف عبادة قلبية مكانها القلب ؛ وهو فزع القلب ووجله ، وهو عبادة لا تُصرف إلا لله جل وعلا ، والمراد بالخوف الذي هو عبادة ولا يجوز صرفه لغير الله: خوف السر ، الخوف الباطن الذي في القلب ؛ الذي يكون في قلب الإنسان بحيث يخاف في قلبه من شخص ما بأن يدعي فيه بأنه عنده قدرة مثلاً على زيف القلوب أو على قبض الأرواح أو يعتقد فيه أنه عنده قدرة على إنزال الضرر به أو نحو ذلك ؛ فيخافه خوف السر الذي لا يكون إلا لله جل وعلا . فالمراد

بالخوف هنا خوف السر ؛ بحيث يخاف من شخصٍ ما ويعتقد فيه أنه عنده قدرة على أن يزيغ قلبه أو أن يقبض روحه أو نحو ذلك من الاعتقادات والظنون والمخاوف التي قد ينزلها بعض الناس بغير الله جل وعلا .

مثال ذلك : أن يخاف بعض الناس من المقبورين ؛ فيكون خائفاً من صاحب القبر وتجده يترك بعض الأعمال لا يفعلها خوفاً من صاحب القبر . أحدهم قيل له احلف بالله وكان كاذباً ؛ فحلف ، فقيل له احلف بالولي فلان ؛ فامتنع خاف في باطنه وقلبه من الولي أشد من خوفه من الله سبحانه وتعالى ، لما حلفوه بالله حلف ، ولما حلفوه بالولي امتنع ؛ هذا خوف السر ، يخاف من الولي أن يصيبه خوف سر في باطنه أشد من خوفه من الله ؛ هذا شرك بالله .

قال لي مرة أحد التجار في إحدى الدول ؛ صاحب أموال وجاهل في الدين وناصحته فيما قال لي ، قال لي : أنا أبيع على الناس حاجات وأحياناً أبيع بالدين ، يعني يأخذون مني بالدين ويوفون فيما بعد ، قال فبعضهم يجحد أحياناً أن لي عنده شيء ، يقول : جربت إذا حلفتهم بالله يحلفون وإذا حلفتهم بالشيخ فلان ما يحلفون ، ويقول : أنا دائماً ما أحلفهم بالله أحلفهم بالشيخ ؛ لأنهم أبداً إذا حلفتهم بالشيخ ما يجحد يخاف من الشيخ من الولي خوف سر ، ورب العالمين لا يخاف منه هذا الخوف الذي يخافه من الشيخ . هذا العمل ما هو ؟ هذا شرك بالله ، خوف السر عبادة لا تصرف إلا لله سبحانه وتعالى . أحد هؤلاء قيل له : احلف بالله فحلف ، قيل له : احلف بالولي الفلاني فحلف ، فغضب صاحبه ، أنا لما قرأت هذه الكلمة «فغضب صاحبه» ظننت أنه غضب للشرك ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)) ظننت أنه غضب للشرك ، قال : "فغضب صاحبه وقال : تحلف بالولي الفلاني وأنت تعلم أنه يعلم أنك كاذب؟! " الولي ميت في قبره ، ولما حلف بالله ما قال له : تحلف بالله وأنت تعلم أن الله يعلم أنك كاذب، ما قال له هذه الكلمة ، لكن لما حلف بالولي غضب ، ولما حلف بالله لم يغضب ! .

فمثل هذا التعلق -تعلق القلوب- بالأولياء والمقبورين وأن يخاف منهم هذا شرك بالله سبحانه وتعالى ، بعضهم يمتنع من أعمال مثل أن يمتنع من زنا أو .. يخوفونه بالولي ما يخوفونه بالله ، فيكون هذا الخوف الذي وقع في قلبه ومنعه من الفاحشة شرك بالله سبحانه وتعالى ناقل من الملة ، الزنا ما ينقل من الملة والسرقة ما تنقل من الملة لكن الشرك بالله ينقل من الملة يخرج من الدين ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبُطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٢٥] ؛ الشرك محبط للأعمال كلها .

ابن مسعود رضي الله عنه قال : «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أحلف بغيره صادقاً» ؛ لأن الحلف بالله كاذباً ما هو ؟ كبيرة وليس شركاً ، والحلف بغيره صادقاً شرك بالله سبحانه وتعالى ، وعندما توازن بين الكلمتين تدرك فقه الصحابة ؛ يقول رضي الله عنه : «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أحلف بغيره صادقاً» ، وفي كل من الأمرين حسنة وسيئة :

❖ الأمر الأول : الحلف بالله فيه حسنة: حسنة التوحيد ، وفيه سيئة: سيئة الكذب.

❖ والأمر الثاني: فيه حسنة الصدق وفيه سيئة الشرك .

فإذا وازنت تدرك فقه الصحابة رضي الله عنهم ، ولهذا قال رضي الله عنه : «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أحلف بغيره صادقاً» ؛ لأن الحلف بالله كاذباً كبيرة ، والحلف بغيره صادقاً شرك بالله جل وعلا كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)) .

الشاهد أن خوف السر عبادة لا يجوز صرفه لغير الله ، وخوف السر عرفنا معناه وهو أن يخاف من غير الله من ميت أو غائب أو نحو ذلك يخاف أن يقبض روحه ، يخاف أن يطلع على عمله ، يترك المحرمات خوفاً منه ، يفعل الواجبات خوفاً منه أو نحو ذلك ؛ هذا يسمى خوف السر وهو عبادة لا يجوز أن تُصرف إلا لله رب العالمين وسيأتي الدليل على ذلك عند المصنف رحمه الله تعالى .

أما الخوف الطبيعي؛ خوف الإنسان من عقرب أمامه ، أو من حية ، أو من نار مشتعلة ، أو من عدو أمامه ؛ هذا خوف طبيعي ، جاء في الحديث : «كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا خاف من قوم قال : اللهم إننا نجعلك في خورهم ونعوذ بك اللهم من شرورهم» ، وفي القرآن : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ لما ألقى السحرة بعصيتهم وأصبحت حيات تسعى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ ﴿طه:٦٧-٦٨﴾ ؛ فهذا خوف طبيعي ، يعني أمام الإنسان أسد أو عقرب أو حية أو نار مشتعلة أو عدو متسلط فيخاف منه هذا خوف طبيعي ولا شيء على الإنسان فيه ، لكن الخوف الذي هو عبادة هو خوف السر ؛ كأن يخاف غائباً أو يخاف ميتاً أو نحو ذلك فيترك مثلاً المحرم خوفاً منه أو يفعل الواجب خوفاً منه أو نحو ذلك ؛ هذا خوف سر لا يكون إلا لله تبارك وتعالى ، ومن صرفه لغير الله فقد أشرك .

والخوف من الله هو عبادة قلبية عظيمة تسوق الإنسان إلى فعل الطاعات واجتناب المحرمات ، لأن العبد كلما كان من الله أخوف كان لعبادته أطلب ، وقد قيل : «كل شيء تخاف منه تفر منه ؛ إلا الله سبحانه وتعالى إذا خفته فررت إليه»، ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠] لا ملجأ من الله إلا إليه ، ليس لك ملجأ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة:١١] لا مفر لك ولا ملجأ إليك إلا إلى الله سبحانه وتعالى ؛ فالعبد إذا خاف الله سبحانه وتعالى في قلبه ترك المحرمات وابتعد عن الآثام وعن المعاصي خوفاً من الله . فالخوف عبادة قلبية عظيمة ، والعلماء رحمهم الله يقولون : العبادات عموماً تقوم على أركان ثلاثة في القلب وهي: المحبة والرجاء والخوف ، وسيأتي ذكر الرجاء عند المصنف .

فالمحبة عبادة ، والرجاء عبادة ، والخوف عبادة ؛ وهي للعبادات كلها بمثابة الأركان ، تقوم العبادات كلها على هذه الأركان الثلاثة: الحب والرجاء والخوف . إذا قيل لك مثلاً لماذا تصلي ؟ لماذا تصوم ؟ لماذا تحج ؟ تقول : أنا أؤدي هذه الطاعات حباً لله ورجاء لثوابه وخوفاً من عقابه كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ

يَدْعُونَ يَتَغَوَّنَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴿[الإسراء: ٥٧]﴾ فهذا شأن أهل الإيمان وأهل الطاعات يتقربون إلى الله سبحانه وتعالى بأنواع القرب وأنواع العبادات حباً لله ورجاءً لثواب الله وخوفاً من عقاب الله سبحانه وتعالى . وبهذا يُعلم أن هذه الثلاث -الحب والرجاء والخوف- أركان قلبية للعبادات كلها ، وبها أيضاً يُعلم مكانة الخوف من الدين ؛ الخوف من الله سبحانه وتعالى .

قال : ((ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي﴾ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)) ؛ أول الآية : ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] ؛ أي يخوفكم بأوليائه ، قال : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ يعني لا تخافوا أولياء الشيطان ﴿وَخَافُونِي﴾ أي ليكن خوفكم من الله وحده ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي بالله سبحانه وتعالى وبما أمركم جل وعلا بالإيمان به ؛ فلا تخافوا إلا الله ، لا تخافوا الشيطان ولا تخافوا أولياء الشيطان ، لا تخافوا إلا الله جل وعلا .

قال : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي﴾ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ جعل الخوف شرطاً في صحة الإيمان قال : ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ؛ فكما أنه إذا دعا غير الله أو سأل غير الله انتفى عنه الإيمان فكذلك إذا خاف غير الله خوف السر مثل أن يخاف أن يفعل به شيئاً بصره فإن الخوف أنواع منه خوف السر ، فإذا خاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر بالله سبحانه وتعالى . وهذا له أمثلة أشرت إلى بعضها ، مثل لو خاف من أحد غائب أو ميت أو نحو ذلك أن يُزيغ قلبه أو أن يُضله أو أن يقبض روحه أو نحو ذلك ؛ هذا كله خوف سر وهو شرك بالله سبحانه وتعالى .

قال : ((ودليل الرجاء)) والرجاء عبادة قلبية من أجل العبادات ، والرجاء: هو الطمع والأمل؛ طمع القلب وأمله بالله سبحانه وتعالى وبما عنده وطمعه في رحمة الله ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] ، وهو عبادة لا تصرف إلا الله جل وعلا قال الله تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ١١٠] ، ومر معنا ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ ؛ فالرجاء عبادة .

قال : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات يقدمها المسلم في هذه الحياة يرجو بها لقاء الله على خير حال . فالرجاء عبادة وهي عبادة قلبية ، عبادة مكانها القلب بل هو من أركان التبعّد القلبية وهي : الرجاء والخوف والمحبة .

قال : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ؛ «أَحَدًا» نكرة في سياق النهي فتفيد العموم ، من كان يرجو لقاء الله ويطمع في ثوابه ويخاف من عقابه ويعلم أنه سيقف يوماً بين يديه يحاسبه ويجازيه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي ليتقرب إلى الله وليكثر من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

وهذه الآية كما نبّه العلماء جمعت بين شرطي قبول العمل ، فإن الأعمال لا تقبل إلا بشرطين : إخلاص للمعبود ومتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام ؛ الإخلاص في قوله : ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ، والمتابعة في قوله : ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ، لأن العمل الصالح هو ما وافق السنة ، والله لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصاً لوجهه صواباً على وفق هدي نبيه صلوات الله وسلامه عليه . ولهذا جاء عن الفضيل بن عياض رحمه الله أنه قال في معنى قوله تعالى : ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المائدة: ٢٠] قال : «أخلصه وأصوبه» قيل : يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه؟ قال : «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص : ما كان لله ، والصواب : ما كان على السنة» .

قال : ((ودليل التَّوَكُّلِ)) ؛ والتوكل أيضاً عبادة قلبية ، عبادة مكانها القلب وهو التفويض والاعتماد ﴿وَأَفْوُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤] اعتماد القلب ، الاعتماد والتفويض لا يكون إلا على الله سبحانه وتعالى .

قال : ((ودليل التَّوَكُّلِ قوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾)) إن كنتم مؤمنين فابروا من حول أنفسكم وقوتها ومن حول الناس وقوتهم واعتمدوا في أموركم وحاجاتكم ورغباتكم وشؤونكم كلها على الله وحده ، فوضوا الأمور كلها إلى الله ، الجأوا فيها إلى الله ، اعتمدوا فيها بقلوبكم على الله سبحانه وتعالى ؛ أموركم الدينية والدنيوية . ولهذا وجّه نبينا عليه الصلاة والسلام من يخرج من بيته أن يقول : «بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله» ، وهذه الكلمات الثلاثة كلها كلمات استعانة وتوكل «بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله» قال : ((فإذا قال ذلك قيل له : هديت ووقيت وكفيت)) أي هداك الله ووقاك الله وكفاك الله لأنك متوكل على الله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] ، من توكل على الله لو كادته السماوات والأرض ومن فيها فאלله سبحانه وتعالى ناصره ومؤيده وحافظه وكافيه ، ((واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك)) . فالتوكل عبادة ولا تكون هذه العبادة إلا على الله سبحانه وتعالى .

نبينا عليه الصلاة والسلام مرةً كان قافلاً مع أصحابه من غزوة فأدركهم التعب فناموا جميعاً ، ونام عليه الصلاة والسلام وسيفه إلى جنبه فجاء رجل من الأعداء وأراد أن يغتتم هذه الفرصة يريد قتل النبي عليه الصلاة والسلام فأخذ يتخطى بهدوء إلى أن جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأخذ السيف وسله مصلتاً ؛ ففتح عليه الصلاة والسلام عينيه وإذا بهذا العدو واقف وبيده السيف ويريد أن يهوي به على رسول اله عليه الصلاة والسلام ؛ يد قوية وبها سيف صلت ورافعاً له ما بقي إلا أن يهوي به ، فقال الرجل مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام : "من يحميك مني؟" فقال عليه الصلاة والسلام بكل ثقة وتوكل على ربه جل وعلا: ((الله)) ، قال : " من يحميك مني؟" يعني من يخلصك ؟ من ينقذك ؟ من ينجيك مني ؟ قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((الله)) ، فلما قال عليه الصلاة والسلام ((الله)) تعطلت يده عن الحركة الرجل ، يده وساعده القوي الممسك بالسيف بقوة أصبحت يده معطلة لا تحسن تقبض على سيف ولا تحسن أن تضرب بسيف ليس فيها قوة عطلها الله سبحانه وتعالى عن ما فيها من قوة؛ فسقط السيف من يده لأن يده أصبحت ما تتحرك ، فقام عليه الصلاة والسلام وأخذ السيف وأمسك بالسيف وقال له : من يحميك مني ؟ فأخذ يترجى : أنت كريم وأنت ابن كريم ويطلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يسامحه .

موسى عليه السلام لما تراءى الجمعان ماذا قال له قومه ؟ قالوا «إنا لمدركون» ؛ يرون حقيقة مفزعة ؛ البحر أمامهم وفرعون بجيشه وعتاده وجنوده وقوته وصلوهم ؛ قالوا إنا لمدركون، ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجُمُعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] ماذا قال موسى؟ ﴿قَالَ كَلَّا إِن مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] هذا توكل على الله واعتماد على الله سبحانه وتعالى .

التوكل عبادة قلبية لا يجوز أن تصرف إلا إلى الله ، وهي عبادة تصحب المسلم في كل أموره الدينية والدنيوية ؛ إذا أردت أن تصلي تصوم تحج تتصدق تفعل أي طاعة فعليك أن تتوكل على الله سبحانه وتعالى فيها ، تعتمد فيها عليه سبحانه وتعالى . وإذا أردت أيضاً حاجاتك الدنيوية من بيع وشراء وطعام وشراب ولباس وغير ذلك أيضاً تتوكل على الله .

ولهذا ينبغي أن يُعلم أن التوكل عبادة قلبية تصحب المسلم في حياته كلها في أموره الدينية وأموره الدنيوية ، يجب على المسلم أن يكون شأنه في أموره وأعماله وشؤونه وأحواله كلها متوكلاً على الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيهِ ، ومن يتوكل على الله ماذا يكون له؟ ((من تعلق شيئاً وكل إليه)) ، ومن توكل على غير الله وكل إلى الخسران والحرمان في دنياه وأخراه . فالتوكل عبادة قلبية عظيمة لا يجوز أن تصرف إلا لله سبحانه وتعالى .

ولا يعني التوكل ترك الأسباب ، بل التوكل على الله حق التوكل يكون مع فعل الأسباب ؛ ولهذا إمام المتوكلين عليه الصلاة والسلام كان يفعل الأسباب ويباشرها ، الأسباب في الأمور الدينية والأمور الدنيوية كان يباشر ذلك عليه الصلاة والسلام ويأمر بذلك ؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عنه قال : ((لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)) ، قال : «تغدو» الطير ما جلست في أوكارها تنتظر أن يأتيها الطعام ! بل تمشي وتذهب المسافات تبحث عن الشراب وعن الطعام ، ولهذا التوكل لا بد فيه من فعل الأسباب ، ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله)) قال : «احرص على ما ينفعك» يعني افعل الأمور التي تنفعك واجتهد على فعلها ولا تتوكل إلا على الله ، قال : «واستعن بالله» أي توكل على الله .

الصحابي الذي سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن ناقلته قال : «أعقلها وأتوكل أو أتركها وأتوكل ؟» يعني هل أعقل الناقة ؟ أضع لها عقال في قدمها حتى لا تذهب وأتوكل على الله ؟ أو أتركها طليقة بدون عقال وأتوكل على الله ؟ إلى ماذا أرشده عليه الصلاة والسلام ؟ أرشده إلى فعل السبب قال : ((اعقلها وتوكل)) يعني ضع في رجلها العقال وتوكل على الله ؛ أرشده عليه الصلاة والسلام إلى فعل السبب .

عمر رضي الله عنه لما ذكر له طائفة من الناس جاءوا إلى الحج بدون زاد وقالوا نحن المتوكلون ، قال : «بل هم المتواكلون» ، المتوكل هو الذي يضع بذره ويتوكل على الله ، لا بد أن يفعل السبب ، أما أن يجلس معطلاً بدون سبب ويريد أن يحصل !!

فلا بد من فعل الأسباب ، ولا يُعتمد على الأسباب وإنما يُعتمد على الله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا لو أن شخصاً قال : «إن كتب الله لي أولاد يكون لي أولاد لكن أنا لن أتزوج إلى أن أموت» ، أو شخص مثلاً يقول : «إن كتب الله لي أن أكون من كبار العلماء المحققين سأكون لكن لن أطلب العلم يوماً ولن أذهب إلى عالم ولن أقرأ كتاباً ولن أحفظ درساً ولن أتفقه» هذا لا يكون عالماً . النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم)) أرشد إلى فعل السبب . ولهذا قال من قال :

تمنيت أن تمسي فقهياً مناظراً
بغير عناءٍ والجنون فنونُ
وليس اكتساب المال دون مشقةٍ
تلقيتها فالعلم كيف يكونُ

يعني العلم لا يكون إلا بفعل السبب . فإذا التوكل عبادة قلبية عظيمة جداً تصحب المسلم في أموره كلها وشؤونه جميعها الدينية والدنيوية ، وهي شرط في الإيمان ؛ قال : ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي كافيته ، في الآية الأخرى قال : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ فمعنى ﴿حَسْبُهُ﴾ أي كافيته ، الحسب هو الكافي ؛ فالذي يتوكل على الله يكون الله سبحانه وتعالى كافيته ومؤيده

وناصره وحافظه . فهذا دليل التوكّل ، ذكر رحمه الله تعالى على التوكّل دليلين ثم استمر رحمه الله تعالى في سوق الأدلة على بقية العبادات التي ذكرها ، وإلى هنا نقف .
والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين.